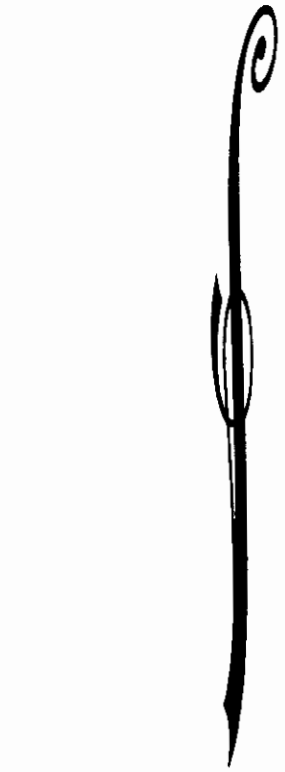

الفقه الأكبر

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

الراشد، محمد أحمد.

الفقه اللاهب، وهو تهذيب لكتاب الغياثى لإمام الحرمين الجوينى الشافعى/ هذبه: محمد أحمد الراشد.

ط١ – القاهرة: دار النشر للجامعات، ٢٠١١.

٢٠٠ ص، ٢٤سم.

تدمك: ٦ ٣٨٨ ٣١٦ ٩٧٧ ٩٧٨

١ – الفقه ، أصول أ– العنوان

ب– إمام الحرمين، عبد الله بن عبد الله ، ١٠٢٨ – ١٠٨٥ (مؤلف) ٢٥١

تـاريخ الإصـدار: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

حقـوق الطبـع: محفوظة للناشر

رقـم الإيـداع: ٢٠١١/٣٤٠١

الترقـيم الـدولى: ISBN: 978 – 977 – 316 – 388 - 6

الكـود: ٢/٣٤٣

تحـذير: لا يجوز نسخ أو استعمال أى جزء من هذا الكتاب بأى شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل «المعروفة منها حتى الآن أو ما يستجد مستقبلاً» سواء بالتصوير أو بالتسجيل على أشرطة أو أقراص أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن كتابى من الناشر.

دار النشر للجامعات

ص.ب: ١٣٠ محمد فريد – القاهرة ١١٥١٨

ت: ٢٦٣٤٧٩٧٦ – ٢٦٣٢١٧٥٣ ف: ٢٦٤٤٠٠٩٤

E-mail: darannshr@yahoo.com

« جمرة ... فى محراب قلبى .. لهبت »

الفقه اللاهب

« وهو تهذيب لكتاب الغياثى لإمام الحرمين الجوينى الشافعى »

هذبه

محمد أحمد الراشد

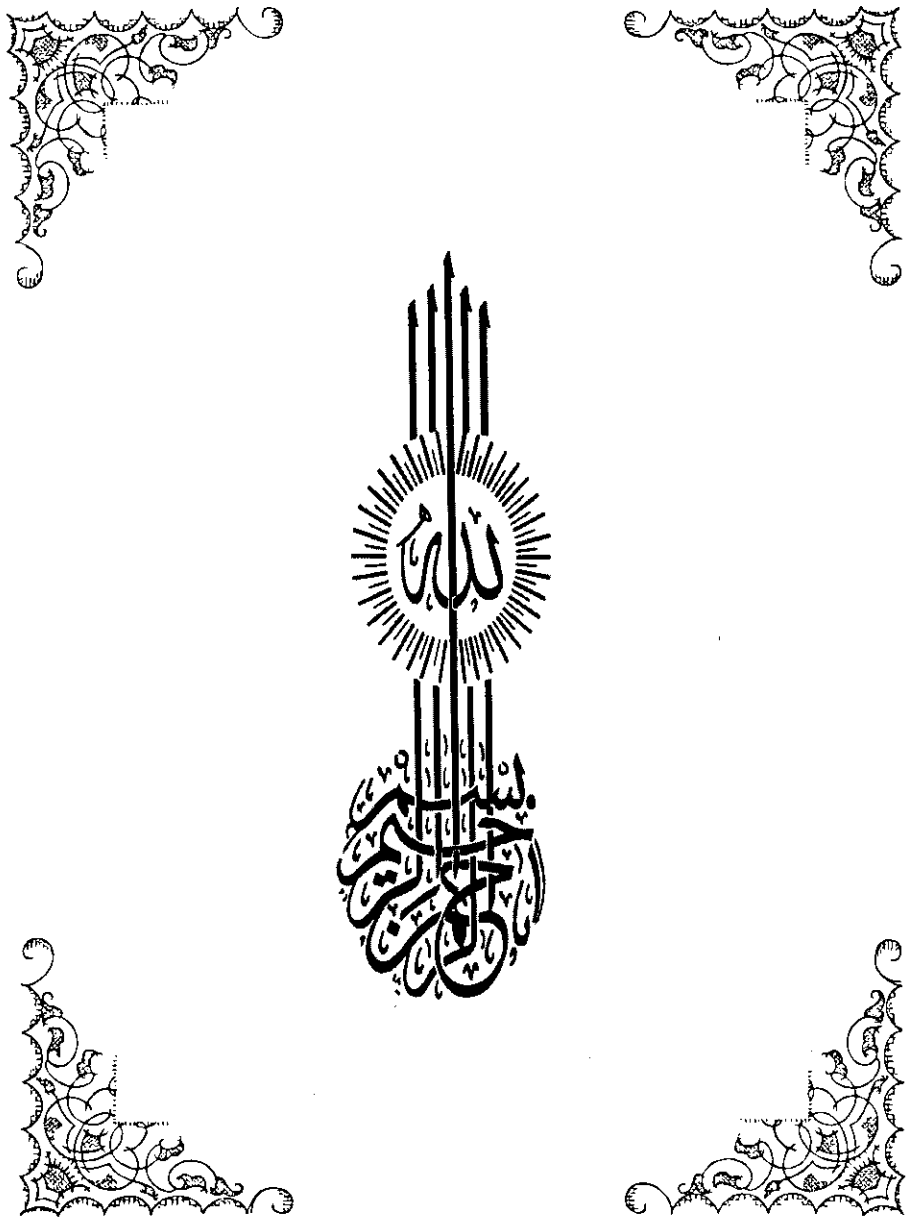
بسم الله الرحمن الرحيم

الغياثي
غياث الأمم في التياث الظلم

لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني
٤١٩ - ٤٧٨هـ

تحقيق ودراسة الأستاذ الباحث المتقن

الدكتور عبد العظيم الديب

كلية الشريعة - جامعة قطر

وهذبه

محمد أحمد الراشد

قال المحقق:

«الالتياث: هو الالتفاف والاختلاط والتشابك، ويقال: التاث النبات: التفّ بعضه ببعض، ويقال: التاثت الخطوب.

والظُلَم، بفتح اللام: جمع ظُلْمة.

فكان المعنى: هذا ما تغاث به الأمم عندما تلتف بها الظلمات، أى أنه ﷺ يقدم المنهاج الذى تغاث به الأمم عندما تحيط بها الظلمات، أى عندما يخلو الزمان من إمام، ومن مفتٍ، ومن حملة الشريعة وعلمائها» [ص ٦٠ من المقدمة].

المقدمات

هذا التهذيب

كتاب «الغياثى» مدونة فقهية عالية المستوى، غنية بالمنطق الأصولى الرصين، والحجاج، والجدل الحَسَن، وقد أجاد الجوينى خلال ذلك عرض مدارك الاجتهاد التى تستند إليها الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية، وأبدى مقدرة، وأبان عن فهم مرن وعقل مستوعب للأبعاد الحضارية الإيجابية أو التطورات الاجتماعية السلبية التى طرأت على الأمة بعد انقراض الأجيال الفاضلة.

وحين تدوينى لكتابى فى «أصول الإفتاء والاجتهاد» أغرانى الإبداع الجوينى المتكرر على أن أستعين به، وأطلب نجدته فى مواضع كثيرة مشكلة، حتى اتضح لى بعد محاولاتى الاجتهادية أن مذهب الجوينى السياسىَّ والدَّعَوِىَّ الذى أورده فى «الغياثى» - هو أقرب مذاهب الفقهاء إلى الفكر الإسلامى المعاصر، وفقه الدعوة التجريبى الذى انتهت إليه معاناة الدعاة اليوم، بل هناك توافق وتطابق كثير، رغم آراء غريبة على الحس الدعوى والسياسي المعاصر - جنح إليها فى غفلة من وعيه الفهقى، مما ألزمنى أن أستدرك عليه عبر بعض الحواشى، كمثل قوله فى انعقاد البيعة بواحد: «إذا وجد المؤهل للإمامة»؛ فهذه هفوات لم يبرأ من مثلها فقيه، ولا تثلم مكانة هذه المدونة الرفيعة، أو تعيب صوابه الكثير، ولقد كان جريئًا حقًّا فى قضية الإمامة، وجهر بتغيير الضعفاء، وحسبه هذا الإبداع.

ولما أعلمه من أن أكثر الدعاة فى غفلة عن هذا الكتاب الثمين، وما أعتقده من أن استيعابهم للمنطق السياسى الشرعى الجوينى ينقلهم إلى مزيد وعى وبصيرة وفقه تخطيطى - أحببت لهم أن يتداولوه، ويحتفوا به، ويتدارسوه.

لكنى وجدت فى متن الكتاب إطالة، ضاعفها المحقق بحواشيه ومقابلاته بين مخطوطات الكتاب، ثم ضاعفها الناشر حين طباعته الكتاب عبر الحرف الكبير وكثرة الفراغات، حتى صار ضخمًا، يقذف فى قلب القارئ رهبة.

فكان لابد من القيام بعملية تهذيبية وفق طريقتى التى اشتهرت عبر تهذيب «مدارج السالكين» بخاصة، وموزاينى المنهجية فى الانتقاء وإبقاء المعانى أو الحذف، وسميته «غيث الغياثى»؛ تيمنًا بالغيث الماطر المبارك، ثم عدلت عنه إلى اسم «الفقه اللاهب» لمطابقة هذا الوصف ما هنالك، واستعرت هذا العنوان من كلام الجوينى نفسه، فقد وصف نفسه فى المقدمة أنه ينفث لهيب الفكر، ثم إنِّى قصدت أن يكون هذا التهذيب حلقة مميزة ضمن سلسلة تهذيب عيون المدونات الإيمانية والفقهية، رديفة معاضدة لسلسلة إحياء فقه الدعوة، تكملها وتسد نقصها وتظاهرها فى التوعية وبناء العقول وتزكية النفوس.

وليست هذه الطريقة التهذيبية سهلة كما يظن المتعجل، وإنما هى مُكنة مستندة إلى ذخيرة تجريبية تربوية، وسليقة يودعها الله فى فطرة بعض عباده، وفن تسيطر عليه ذوقيات وفراسات خفية، ثم هى مدرسة لها معاييرها ومقاصدها وأساليبها، والمأمول أن يحتفى الدعاة بهذه التهذيبات احتفالهم بما هو من إنشاء مفكرى الدعوة، سواء بسواء؛ لأن منهجية التربية الدعوية -فى شطر منها- قائمة على هذا المعنى، وتستند إلى مقالات السلف الصالح ورؤاهم، وكان من اللازم تجديد عرضها، وابتكار مناورات تهذيبية، تميل بالأنماط التأليفية القديمة نحو التجانس مع لغة العصر، ومراعاة الذوق المعرفى الحاضر، ثم الحاجة الدعوية بخاصة.

لذلك جاء عملى فى هذا التهذيب متنوعًا، وتدخلى واسع التغيير.

فالكلام، فى المقدمة التى كتبها المحقق الأستاذ عبد العظيم الديب، كلام طويل جدًّا، يقع فى ١٨٤ صفحة، وفيه إطناب ووصف لنسخ الكتاب المخطوطة وتفصيل حول حياة الجوينى ، فضغطت الكلام الذى فيها ضغطًا، واكتفيت بالضرورى الذى لابد منه.

وأصل الكتاب فيه تكرار وإطناب وسجع خرج عن الحد المستساغ أحيانًا، فحذفت ذلك، أو اختصرته، وفيه مدح الجوينى لنفسه ولكتابه، اختصرته، وانتقاد للماوردى وأحكامه السلطانية، بلغ حد القسوة، فحذفته، وإسراف فى مدح الوزير

نظام الملك، وله حق فى هذا الإسراف؛ لرفيع شأن هذا الوزير الثقة العالم المجاهد، لكنى اختصرته.

كذلك وجدت إشارات فقهية خارجة عن موضوع الكتاب، واستعمالًا لمفردات من اللغة مهجورة الآن، صعبة الفهم، واستدعت شرحًا من المحقق لها، فحذفت ما كان من ذلك.

ثم إن مجرد حذف هوامش المحقق التى أكثرها من باب المقابلة بين كلمات النسخ المخطوطة - قد هبط حجم الكتاب إلى النصف تقريبًا.

واختار الناشر عند الطباعة حرفًا كبير الحجم، وفراغات بين الكلمات وبين السطور واسعة، فهبط الحرف الصغير الذى اخترته وتقليص الفراغات بالحجم إلى النصف ثانية من غير مبالغة فى تصغير الحرف.

وهكذا أصبح الكتاب بضغط المقدمة وإلغاء هوامش المحقق فى المقابلة بين مخطوطات الكتاب، وبحذف بعض السجع والإطناب والمعانى الثانوية، وبتصغير الحرف وتقليص الفراغ - فى حجم مناسب، لا يزيد على خمس المجلد الأصلى الذى ظهر به، مما يجعل مطالعة طلاب العلم الشرعى ودعاة الإسلام أيسر، وفهم موضوعه عليهم أسهل، مع ما هو أبعد من ذلك من ترويج الكتاب وجعله مصدرًا للعامة بعد أن كان من مقتنيات الخاصة، لضخامته، ولندرته، وخلو الأسواق منه؛ لأن أكثر النسخ التى طبعت وزعتها دائرة الشئون الدينية بدولة قطر مجانًا قبل عشرين سنة، مما حرم الكثيرين من الوصول إليه، وربما كانوا أبعد همة فى طلب العلم الشرعى ممن أهدى لهم، فوق ما فى عملنا من إتاحة رخص الثمن الذى يشترى به الكتاب، لصغر حجمه مهذبًا، مما أوصله إلى أيادى شباب الإسلام فى الأقطار الفقيرة، ثُمَّ ما هناك من احتمالات ترجمته إلى اللغات الأخرى بعد تجويد الكتاب بالتهذيب، مما يجعل النفع متعديًا، ودائرة الرواج مضاعفة.

إن «الغياثى» قطعة رصينة من العمل الاستنباطى والقياسى، سرعان ما يكتشف صاحب الخلفية الشرعية الوافية أهميته الاستثنائية، فيبدى حفاوة به من تلقاء نفسه

دون حاجة لوصية وحثّ، كما أن هذه المدونة هى أصل وجذر الفكر الدعوى والإفتاء السياسى المعاصر، وقد جمعت حاجات الدعوة من أقطارها، ومنحتها تعليلًا واضحًا، مع الثقة والاعتقاد اليقينى بصواب ما هنالك، حتى دقّ الجوينى مرارًا على صدره يضمن عهدة اجتهاداته الجريئة اللاهبة، وكأنه صار بذلك مؤسس مدرسة الاجتهاد السياسى الحر، وانتصبت إفتاءاته الصريحة تغرى الشاطبى وابن تيمية وابن القيم فيما بعد - أن يتابعوه، فهو الرائد، وهم المقتفون.

والجوينى إنما يدير أمر الولايات العامة والإمامة على «الكفاية»، ويستعمل اصطلاح «خلو الزمان عن الأئمة»، ولا يعنى به عدم وجود حاكم مسيطر؛ فإن وجوده ظاهرة إنسانية عامة، وإنما يعنى حالة من ثلاث:

* أن يكون الإمام غير مكافئ، بادى الضعف، قليل الخبرة.

* أو يكون من أهل الكفاية، لكنّ نفوذه يقتصر على بعض الأمة وفى ناحية منها فقط.

* أو يكون الإمام فاسقًا، ما هو بأهل، ولم تحصل له بيعة، وإنما استولى بالقوة.

وباستحضار القارئ لهذه المعانى لاصطلاحه يستطيع أن يفهم مقاصد الجوينى على وجهها.

ثم إنه يرى لوم العامة أيضًا والتحريج عليهم كذلك، ويعيبهم فى مواطن كثيرة - أنهم يتهيبون فى مواطن الإقدام، ولا ينهون عن منكر.

ومما يعين قارئ «الغياثى» على فهمه بصورة صحيحة، وفهم حماسة الجوينى خلاله - أن يتذكر أن هذا المذهب السياسى التغييرى إنما جاء بعد دهر من معاناة الأمة وفقهائها من أسواء وبدع وظلم الحكم البويهى المنحرف وتحالفه مع الدولة الفاطمية بمصر التى تشاكله فى السوء.

فدونك أخى الداعية هذه الاجتهادات الجوينية واللمعات الفقهية، واغترفْ علمًا عطرًا قريب المنال، وتأملْ طائفة من المحاكمات الأصولية، هى من آيات الجمال - يتوسع وعيك، ويجزل همك.

ثم ادع للجوينى؛ لإمامته وإبداعه وصراحته فى الحق.

* وتلزم الإشارة إلى أمرين:

١- أنى أبقيت بعض حواشى المحقق الدكتور عبد العظيم الديب لأهميتها؛ ولأن النص لا يفهم -ربما- بدونها.

ثم أضفت تعقيبات أخرى تزيد قول الجوينى وضوحًا، وحيثما لم أنسب التعقيب لنفسى فمعنى ذلك أنه للأستاذ المحقق.

٢- وأن المقدار الذى أبقيت عليه من الكتاب يتخلله حذف كثير، فلم يطرأ الحذف على الفقرات فقط، بل حتى داخل الفقرة، ربما أحذف كلمات أو جملًا، وعلى ذلك فلا يصلح هذا التهذيب لاستلال أقوال منه من قبل الباحثين ونسبتها إلى الجوينى، بل يجب رجوع الباحث إلى الأصل الكامل للغياثى.

* وأدعوك أخيرًا أن تشكر معى المحقق الأستاذ الدكتور عبد العظيم الديب، وادع له؛ فإنه كان بارعًا، وبذل جهدًا عظيمًا، وأنا آمل أن يتأول لى صنيعى؛ إذ لم أستأذنه، وأن يتفهم موازينى الدعوية التربوية والسياسية فيما أثبتُّ ومحوتُ، لا الموازين العلمية الصرفة؛ إذ إنى لم أصنع مختصرًا لـ«الغياثى»، وإنما انتقيت منه المعانى الكاشفة عن جذور الفكر الدعوى المعاصر، فهو تهذيب للكتاب بميزان دَعَوِيٍّ، وما بمختصر.

واجعل لى فى دعائك سهمًا.

وفقك الله للصالحات.

محمد أحمد الراشد

مختارات بتصرف من مقدمة المحقق

الأستاذ عبد العظيم الديب

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ومن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له.

وبعد:

لقد توثقت صلتى بإمام الحرمين رضي الله عنه، وصارت هذه الصلة محبةً وتآلفًا، منذ أصغيت إليه أسمع منه كتابه «البرهان فى أصول الفقه»، وقد عايشته فى نيسابور حيث نشأ، ورافقته إلى مجالس شيوخه، ثم رأيته يصول ويجول فى مجالس المناظرة، يقمع دعاة الفتنة، ويكشف شبهات الزائغين، ثم رأيت كيف اصطلى بنار المحنة وحرّها، فصبر وصابر.

وكان ثمرة المرحلة الأولى من هذه الرحلة الطويلة:

١ - دراسة بعنوان: «إمام الحرمين: حياته وآثاره».

٢ - تحقيق كتاب: «البرهان فى أصول الفقه».

ثم عدت لإمام الحرمين فى المرحلة الثانية، وصرت مصيخًا مؤلفاته كلها، وبخاصة موسوعته الفقهية الجبارة «نهاية المطلب فى دراية المذهب»؛ محاولًا بذلك أن أصل إلى خصائص فقهه، فكان من ثمرة ذلك: البحث الذى قدمته أطروحة للدكتوراه بعنوان «فقه إمام الحرمين»، وقد نال تقدير مرتبة الشرف الأولى، وكان مما وصلت إليه من نتائج أن هناك كثيرًا من القضايا والمسلمات البديهية فى حياتنا الثقافية ومعلوماتنا تحتاج إلى تصحيح. فمن ذلك: النظر إلى إمام الحرمين بصفته متكلمًا بالدرجة الأولى، وأن علم الكلام هو علمه الأول.

لكن آثاره ومؤلفاته فى الأصول والفقه أضعاف مؤلفاته فى علم الكلام، و«الغياثى» من أهم هذه الكتب وأخطرها، إن لم يكن أهمها.

بيئته

هو أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله الطائى السِّنبسِى، شغل ﷺ من الزمان تسعًا وخمسين سنة، من سِنِيِّ القرن الخامس الهجرى ٤١٩ - ٤٧٨ هـ.

ومع أن هذا القرن الخامس الهجرى يمثل قمة التمزق الذى وصلت إليه الدولة الإسلامية، وتفرقها إلى دويلات فى المشرق والمغرب، إلا أنه كان من أخصب فترات الحصاد للنهضة العلمية الرائعة؛ فقد كانت كل دويلة تحرص على أن يكون لها مدارسها وعلماؤها وأدباؤها وشعراؤها، استكمالًا لأبهة الملك ومظاهره، وكانت منطقة خراسان من أخصب المناطق إنجابًا للعلماء والأئمة.

وكانت نيسابور، التى نشأ بها إمام الحرمين، من أزهى مدن خراسان، وكانت المجتمعات تموج ببقايا من عقائد بائدة: فارسية، وهندية، ويونانية. وكانت هذه العقائد تتخفى وراء فلسفات ومذاهب وطوائف وفرق، ولا يهدأ للصراع والجدل بينها أوار، فى بيئة علم وحضارة وفكر متوثب، وآراء متدافعة متنافسة، مما كان حريًا أن يؤثر فى شخصية إمام الحرمين، ويزيد من احتداد قريحته، واشتعال ذكائه، وتوقد ذهنه.

ونجد أن والده كان إمام عصره فى نيسابور، تفقه على أبى الطيب سهل بن محمد الصعلوكى، وأبى بكر القفال، وأبى عبد الرحمن السلمى، وشَرَحَ كتابَ المزنى، و«الرسالة» للشافعى، وله تفسير كبير، ومات بنيسابور سنة ٤٣٨هـ، وكان ورعًا، صاحب جِد ووقار.

وقد كانت صفات إمام الحرمين عالية، وحباه الله بالأخلاق السامية، فمن تواضعه العلمى أنه نقل أشياء عن تلميذه عبد الرحيم بن الإمام أبى القاسم القشيرى.

كما كان حر الرأى، لا يقلد أحدًا، ففى «تبيين كذب المفترى» لابن عساكر أنه رفض أن يقلد والده وأصحابه، وأخذ فى التحقيق.

وفى «شذرات الذهب» لابن العماد أنه قال فى اعتراض على والده: «وهذه زلة من الشيخ ﷺ».

وكان يتمتع بذاكرة نادرة، ففى «وفيات الأعيان» لابن خلكان أنه كان يذكر دروسًا يقع كل منها فى عدة أوراق، ولا يتلعثم فى كلمة.

كما تميز رضي الله عنه بصبر ودأب نادرين فى طلب العلم والبحث، وكان يقول -كما فى «تبيين كذب المفترى» - : «أنا لا أنام ولا آكل عادةً، وإنما أنام إذا غلبنى النوم ليلًا كان أو نهارًا، وآكل إذا اشتهيت الطعام».

وكذلك رزقه الله رقة القلب وخشوعه، قالوا: «ومن رقة قلبه أنه كان يبكى إذا سمع بيتًا أو تفكر فى نفسه ساعة»، ويصور السبكى فى طبقات الشافعية هذا قائلًا: «وإذا وعظ ألبس الأنفس من الخشية ثوبًا جديدًا، ونادته القلوب:

إننـــــا بشـــــــر، فأسجِـــح فلسنـا بالجبـال ولا الحديـدا».

* أما شيوخه، فإنه سمع أول ما سمع من أبيه الإمام أبى محمد، وقد أخذ الأصول عن أبى القاسم الإسكاف الإسفرايينى، وسمع الحديث من أبى بكر الأصبهانى، والنَضْرَوى، وأبى حسّان المزكّى، والجوهرى، وأجاز له الحافظ أبو نعيم الأصبهانى صاحب الحلية، كما أخذ القراءات عن الخبّازى، والنحو والأدب عن أبى الحسن المجاشعى.

وقد رحل إلى أصبهان وبغداد وغيرهما آخذًا؛ عمن فيها من الشيوخ، ثم إلى الحجاز، وجاور بمكة أربع سنين ؛ يدَّرس ويفتى، ويجمع طرق المذهب، ويقبل على التحصيل -كما قال ابن عساكر- . وذكر ابن خلكان أنه جاور أيضًا بالمدينة، ومن هنا جاءه لقبه الذى عرف به: «إمام الحرمين»، وكانت سنه إذ ذاك تقرب من الأربعين.

وقد خلف إمام الحرمين مصنفات كثيرة فى معارف متنوعة، شملت الكلام وأصول الفقه، والخلاف والجدل، والفقه والتفسير والخطب والمواعظ والوصايا، وقد أربت هذه المؤلفات على الأربعين، منها:

* فى علم أصول الفقه: البرهان، الورقات، التحفة.

* فى الفقه: نهاية المطلب، مختصر النهاية.

* فى علم الكلام: الإرشاد، الشامل، العقيدة النظامية.

* فى علم الخلاف والجدل: الكافية.

وظل مجاهدًا رضي الله عنه فى دين الله، ناصرًا سنة نبيه ﷺ، حتى أدركه قضاء الله سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، ودفن بنيسابور.

تعريف بالغياثى

«الغياثى» اسم الشهرة لهذا الكتاب، أما الاسم الكامل كما سماه المؤلف «غياث الأمم فى التياث الظلم»، والغياثى: نسبة إلى غياث الدولة، الذى هو نظام الملك.

وقد أكد نسبة هذا الكتاب إلى إمام الحرمين أكثر من عشرة مصادر، مثل: «سير أعلام النبلاء» للذهبى، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان، و«شذرات الذهب» لابن العماد، وغيرها، فوق أن إمام الحرمين نفسه ذكره فى كتابه «البرهان».

ويعتبر «الغياثى» من أواخر مؤلفات إمام الحرمين، فقد ورد فيه ذكر لموقعة «ملاذكرد» التى كانت بين ألب أرسلان، وإمبراطور الروم فى سنة ٤٦٣هـ.

ولعلنا بهذا نستطيع أن نقول: إن هذا الكتاب من أكثر كتب إمام الحرمين تمثيلًا لآرائه وأفكاره؛ حيث حمل إلينا آخر ما استقر عليه نظره، واطمأن إليه فكره، وهداه إليه بصره.

موضوع الكتاب وخطته

هذا الكتاب ألفه إمام الحرمين لغياث الدولة، نظام الملك، الحسن بن على الطوسى، الوزير العادل، صاحب المدارس التى عرفت باسمه «النظامية»، وأحد الزهاد العبّاد المعروفين، وناصر السنة وأهلها، وحامى الفقهاء من بطش المبتدعة والزنادقة، وأحد فقهاء الشافعية، وقد تولى الوزارة للسلطان السلجوقى «ألب أرسلان»، ثم من بعده لابنه «ملكشاه»، ولد سنة ٤٠٨ هـ، وتوفى سنة ٤٨٥هـ، كما فى «طبقات الشافعية».

إن إمام الحرمين لم يقتصر فى «الغياثى» على بيان أحكام الإمامة؛ بل أعلن أنها ليست مقصودة؛ وإنما هى مقدمة ووُصلة ووسيلة إلى الحديث عن غيرها؛ إذ الحديث عن الإمامة فى حكم التوطئة والبداية -كما يقول- ، وإنما المقصود توضيح مرتَبط قضايا الولاية، إذا خلا الزمان عن الولاة والأئمة، أو وجد المسلمون إمامًا تواصل منه العصيان، وفشا منه العدوان، وزال السداد، وتعطلت الحقوق والحدود.

وسيتضح من سياق الكتاب أنه كان يغرى نظام الملك بالاستيلاء على الحكم، وعزل الخليفة الضعيف الذى كان آنذاك، ووصفه بهذه الصفات، ولذلك تكلم عن «الحكم إذا استولى على منصب الإمامة مستولٍ بشوكةٍ وصَوْلٍ»؛ حيث صرح بأن نظام الملك هو الكافى ذو النجدة المتوحد المتفرد بهذه الصفة.

منهجه فى الكتاب

* من السمات الواضحة فى منهج إمام الحرمين فى كتابه هذا «الغياثى»: الإجمال بعد التفصيل؛ فتراه بعد أن يفصل ويوضح ويوفى البيان والشرح حقه - يعود فيجمل ما فصّله؛ ليكون ذلك أدعى للبقاء فى الذهن.

* وأحيانًا يجمل ثم يفصل.

* لكن من أهم أركان منهجه: التفرقة بين المقطوع والمظنون؛ فإن إمام الحرمين يدرك أن منشأ الاختلاف فى الرأى، والزلل والخطأ فى الفكر: هو الخلط بين المقطوع والمظنون؛ كأنه يريد ﷺ أن يبدأ - فى كل قضية يعرضها - بالاتفاق على المسلّمات القطعيات، وتمييزها عما عداها من المسائل المحتملات، التى تقع فى مجال الظن والاجتهاد، فإذا تم الاتفاق على المقطوع المسلم به - كان ذلك أساسًا صالحًا للبحث والمناقشة، فإذا كان هناك اختلاف فى قضايا ومسائل وراء ذلك فلتكن على وعيٍ بأنها من المحتملات المظنونات، وهذه فى الواقع هى الموضوعية الكاملة، والأسلوب العلمى الأمثل فى البحث والمناقشة.

والقواطع الشرعية ثلاثة:

* نص من كتاب الله تعالى لا يتطرق إليه التأويل.

* وخبر متواتر عن الرسول ﷺ لا يعارض إمكان الزلل روايته ونقله، ولا تقابل الاحتمالات متنه وأصله.

* وإجماع منعقد.

قال: «ولا مطمع فى وجدان نص من كتاب الله تعالى فى تفاصيل الإمامة، والخبر المتواتر معْوزٌ أيضًا، فآل مآل الطلب فى تصحيح المذهب إلى الإجماع، فكل مقتضى ألفيناه معتضدًا بإجماع السابقين - فهو مقطوع به، وكل ما لم يصادف إجماعًا - اعتقدناه واقعةً من أحكام الشرع، وعرضناه على مسالك الظنون عَرْضَنا سائر الوقائع».

وبعد أن وضع هذا الأساس، لم يغب عن باله لحظة؛ فطول رحلتنا معه فى الكتاب نجده ينبه عليه ويلجأ إليه؛ ولذلك انتقد الماوردى، واتهمه بأنه: «لم يتميز له المظنون عن المعلوم، والتبست عليه مسالك الظنون بمدارك العلوم»، و«سياقه المظنون والمعلوم على مزاج واحد».

* ومن منهجه: الاقتصار على الجديد، وعدم حكاية أقوال السابقين، فلم يدون فى كتابه إلا الجديد الذى لم يسبق إليه، ولم يُزْحَمْ عليه، فإذا كان لابد من أقوال السابقين - كان عرضها فى معرض التذرع إلى موضوعه، وفى إيجاز.

وقد ثار على الذين يضمنون كتبهم كلام السابقين، فقال: «ولم نضع كتابنا هذا لمثل ذلك؛ فإن تصنيف الماضين، وتأليف المنقرضين مشحون بهذه الفنون، ومعظم المتلقبين بالتصنيف فى هذا الزمان السخيف يكتفون بتبويب أبواب، وترتيب كتاب، متضمنة كلام من مضى، وعلوم من تصرَّم و انقضى».

* هذا وقد خلا الكتاب من الاستطراد تمامًا، فتقسيمه المحكم، وتبويبه المنظم، وتفريعه الدقيق - لم يدع مجالًا للاستطراد، حاشا موضوع الإجماع، فقد استطرد إليه إمام الحرمين، وأفاض فيه وأطنب.

* ثم نرى جمال الأسلوب، وطلاوة العبارة؛ إذ جمع إمام الحرمين فى هذا الكتاب بين دقة العالم وحرارة الداعية، وذلك فى نصاعة عبارة، وروعة أسلوب، ودقة أفكار.

فحين تفيض حماسته، يهدر كالشلال المتحدر، فى قوة مرعدة مزبدة، والكتاب كله ينطق بما قلنا، ويشهد بما ذكرنا.